الاعتراف الوعر لغونتر غراس: قلم الكاتب ضميره!

عبد الكريم كاظم *

«الوقاحة ان تروى الأشياء كما هي لا كما ينبغي ان تكون..»

أوسكار وايلد

الاعتراف بحماقات أو أخطاء الماضي يرسل عادة الانذارات الأخيرة أو التحذيرات الاستباقية، بلغة الحرب، لبعض الكتاب الذين ما زالوا يطمرون حقيقة كتاباتهم ـ مواقفهم المخجلة تحت أردية التبريرات، فزمن الاعترافات الاعصارية جعل الكثير، من هؤلاء، فاقداً لحواسه الفطرية والمكتسبة ذاك لان عمليات التجريف الأخلاقي قد تخلق، كما يخشى ويخشون، له/لهم حرجاً أو فضيحة الأمر الذي يجعله يرتعب من مشاعر الآخرين نحوه.. تلك المشاعر التي تتمحور بين القرف والازدراء وصولاً إلى الرفض وأحياناً الإقصاء، فأمام بعض هذه الاعترافات الصارخة وهي تعصف بحياتنا الثقافية من الشرق والغرب ستتجسد علاقات الناس المتنوعة بعضها ببعض بطريقة أكثر إيثاراً وإيلاماً من ذي قبل لنتمكن فيما بعد من الانتقال إلى مرحلة ترميم الحاضر ليكون مستقبل الكائنات الحية أكثر إشراقاً.. أي بناء حد أعلى لتطور البشرية كي تستقيم مع الزمن الثقافي الحديث الذي يُنتج الابداعات المتوازنة مع الذات دون ان تحدث عملية قطع مؤقت، عرضي أو مقصود مع تراث البشرية الفكري ـ الحضاري الخلاق، تماماً كما حدث مع العراقيين الذين تتعايش في ذاكرتهم المأساة مع الإبداع المنتمي إليها بحيث أصبح لزاماً على العراقي ان يقرر ان زمن المأساة في بنية عقله الباطن ينتمي إلى ثقافته نفسها وبالتالي فان زمن المبدع العراقي الحقيقي ونتاجاته الثقافية الخالصة هو نفس زمن المأساة العراقية المتكررة التي تنبش بالماضي وتستعيد هوامشه وخفاياه المنسية أو تلك التي يتعمد الآخر نسيانها وتجاهلها كما حدث ويحدث، حتى لحظة كتابة هذه السطور، مع الكثير من المبدعين.

ما ان نفرغ من قراءة الاعتراف الأخير لصاحب (طبل الصفيح، مشية السرطان، القط والفأر، سنوات الكلاب) والحائز على جائزة نوبل للآداب ـ 1999.. من انه وقبل ستين سنة كان قد انتسب إلى فرقة في الجيش النازي (الأس أس) عند نهاية الحرب الكونية الثانية وكان حينذاك في السابعة عشرة من عمره حتى نجد انفسنا أمام حفنة من الكتاب لا تزال تغض الطرف عمداً عن كشف المحجوب وقول المسكوت عنه في سياق تجاربهم الشخصية مع الانظمة القمعية التوتاليتارية والإصرار في الوقت عينه على مخاتلاتهم المبررة بطريقة اللعب التي لم تستطع ان تشفع لهم إخفاء الاعيبهم السمجة وحقيقة خطابهم الثقافي الداعم لتلك الانظمة إضافة إلى ان بعض هؤلاء الكتاب كانت الذرائعية، بالنسبة لاعترافاتهم المنقوصة المزوقة، هي الأكثر وضوحاً بحيث تغافلوا وبشكل متعمد يكاد يكون نوعاً من تشويه الاعتراف أو قول نصف الحقيقة وقد كان ذلك ـ بالنسبة لهم ولتصوراتهم الانطباعية ـ بمثابة إسناد لحالة دفاعية مفضوحة فالكل قد وضع تاريخه الأسود والمخزي جانباً ومضى مع المطبلين الجدد الذين يروجون لتسويق المتناقضات الجديدة وسيقولون لنا لاحقاً.. ان الظروف الحالية ـ والتي كانت قائمة آنذاك ـ هي التي أملت عليهم ذلك التوجه وانعشت، مرة أخرى، هذه الثقافة الدعائية السلطوية التعبوية الفضفاضة ـ التي قرعوا وسيقرعون طبولهم من أجلها ـ والواقع ان الروحية الحرباوية لهؤلاء تعكس دائماً النفسية القلقة، المتشرذمة والمأزومة التي تتعاظم وتتغير مع كل مرحلة ـ أزمة مهما بلغت السوداوية التي تعكس في ذات الوقت جوهر هذه الأرواح المتعفنة التي تسير على خطين أو تلعب على حبلين وتنتعش بين زمنين وأكثر.

الابتعاد عن ثقافة الاعتراف بالنسبة لهذه النماذج، وهم كثر، سيمكنهم من البقاء مؤقتاً في الظل بانتظار اللحظة الملتهبة القادمة للخروج مجدداً إلى الأضواء حاملين معهم طبولهم العتيدة وأبواقهم.. وهذه الحالة في موروثهم المتلون ـ وعيهم الشخصي القاصر يفهم على انه شطارة ما بعدها شطارة بمعنى ان يدخل المتلون انتهازيته المعهودة لديه ثانية للفحص والتمحيص ـ كما يخيل له ـ بما يتلاءم وطبيعة المرحلة الجديدة التي ستخلع عليه، لاحقاً، صفة الإخلاص أو الإبداع بوصفه كاتباً من كتاب السلطة المخلصين فتغدق عليه، كما كان سابقاً، الألقاب، الجوائز، المكرمات والمنح السخية وتفرد له صفحاتها ليكتب لها ما تشاء بمنتهى السخاء أيضاً وستقدم له الدعم والدعوات للإشادة بمهرجاناتها، أعراسها وكرنفالاتها الاحتفالية التي تشكل صورة طبق الأصل لما كان سائداً من قبل، فكم من الجرأة يلزم مثل هذه النماذج ليأخذوا، على الأقل، موقفاً صريحاً واحداً مماثلاً لموقف الألماني غونتر غراس يعترفون فيه بكل هذه الممارسات الحرباوية المتلونة وبحجم الأخطاء القاتلة التي ارتكبوها بحق شعوبهم ـ أوطانهم والتي قادتنا وستقودنا مجدداً إلى المزيد من الخراب الانساني الشامل الذي يلفنا اليوم بطريقة أكثر إحكاماً وإدهاشاً وكأنه مقدمة نادرة لتفكيكنا وتهميشنا من جديد على ضوء خططهم المعدّة سلفاً.. ان لم تكن قد حصلت.

تبقى حقيقة الاعتراف المجرد بمثابة نقد الذات الذي يتكشف بدوره عن نقد الحقيقة واستكشاف الخطأ.. فالاعتراف ليس هو الذي سيقول الحقيقة أو يصرح بالخطأ وانما هو خطاب حضاري يثبت جدارة أخلاقيات الكاتب مثلما يخلق مصداقية كتاباته وحتى مواقفه المعلنة منها وغير المعلنة، من هنا نقول وبصورة جازمة.. ان الاعتراف هو الانتقال من قول نصف الحقيقة إلى قول الحقيقة كاملة وفقاً للجرأة من جهة ولأخلاقيات الكتابة / الكاتب ـ كما أسلفنا ـ من جهة أخرى وبهذا يكون الاعتراف.. نوعاً من المراجعة أو النقد وفقاً لما كشفه (نيتشه) حين قال : (لا يتطابق الاعتراف مع حقيقة ذهنية أو وجدانية قائمة بمعزل عن النقد) وهنا نرى ان ثمة مشاركة فعلية يؤسس لها المعترف لقراءة تاريخه الخاص ومراجعة الحقائق وتصويب الأخطاء بعيداً عن مقاييس المنطق التقليدية المتعلقة بالخطأ والصواب، المع والضد، اليقين والشك أو الدحض والتناقض والتهافت إذا جاز لنا التعبير. بعد ذلك ينتقل الكاتب غونتر غراس أو ينقلنا معه إلى الجهة الأخرى المضادة لمثل هكذا ممارسات مدانة ومرفوضة فيختلف معه من يختلف في اعترافه بأخطاء الماضي ويتفق معه من يتفق في ظل هذه النافذة التي تنتهي به على غير ما بدأ وبهذا سيوصلنا مرة أخرى، برغبة أو بدونها، إلى التساؤل عن مشروعية التأريخ الفردي الذي يستوجب تعريته بلا أدنى شفاعة لنتساءل في ذات اللحظة : وهل هناك من جدوى لهذه التعرية المجردة للذات المتعسفة؟.. بل يمكننا القول أكثر من هذا : إذ انه يحاول تبيان تدخّل الذاتي بالثقافي وإحجام هذا الأخير من عدم استنفاد أدواته المؤثرة والإفصاح تالياً عن موقفه القديم وفعله وبالتالي مغادرته إياه بشكل نهائي بعد تعريته ـ أيضاً ـ للحقبة النازية وقدرته على الإفصاح والفضح التي لا تقبل المسايرة أو الثنائية إذ لا يمكن نزع التأريخ الشخصي بدون هذه المحاسبة التي تكشف لنا جدوى الاعتراف وضروراته الحضارية بنسبة اقترابه من كينونة الكاتب التي تتجلى في انفتاحها على الحياتي والروحي وحتى الغريزي في نبشها للماضي وفي تحريرها للمكبوت أو المهمش فيعيد لنا تدوين ما اختزنته الذاكرة فيقول المسكوت عنه ليتكلم تالياً على علاقة وحاجة الكاتب الحقيقي الأقرب إلى فعل الصراحة.. إلى فعل الحياة.

هناك وهنا وهنالك.. كراديس من كتبة السلطة أين منها الانكشاريات القديمة لا تريد ـ بمنتهى الاصرار ـ ان تمحو تأريخها الأسود أو تبادر بالاعتذار عما اقترفته من خيانات لنقاوة الكلمة وصدقها أو وخزات الضمير وعليه نتساءل: متى يفكر الكاتب الانكشاري برمي جمرات الحقيقة على ذلك التأريخ الشيطاني كي يثبت ـ بأقل التقديرات ـ لذاته، ولو لمرة واحدة، انه تصرف بفروسية وشجاعة؟.. من هنا نقول : ان ما قام به غراس أشبه بعملية انتحارية تخطت زمناً مصاباً بوباء التدليس، التزييف، الكذب والموت.. زمناً تكون فيه نسبة الحاجة للاعتراف هي مقدار الاقتراب أو الابتعاد عن السلطة أو مجاراتها وهذا الأمر سيجعل الآخرين ـ حيارى وما هم بحيارى ـ أمام مأزق قول الحقيقة وان قالها البعض بندرة شحيحة هنا وهناك.. بمناسبة أو بدونها.

ننطلق في قراءتنا لهذا الاعتراف من خلال استنطاق عنوان كتابه ـ سيرته الذاتية الصادرة حديثاً.. (حين نقشر البصل) لنؤسس في الوقت عينه موقفاً منسجماً مع ما ترتب عليه من ردود متباينة وإلى ما هنالك من تأويلات ولتكتمل من جهة مماثلة صراحة الكاتب في دعوته إلى إحياء حقيقة التأريخ النازي الكريه الرائحة والتحرر مما سببه من عار لحق الأمة الألمانية بصرف النظر عن انماط صوره المشوشة المضطربة اللتين تجسدتا بالوعي مثلما حقق نوعاً من القفزة السحرية المباغتة في ظروف مليئة بالإشكاليات والأسئلة النقدية التي تريد منا إعادة النظر في قراءتنا لمستويات النصوص / المواقف بدقة متناهية من حيث طريقة التناول وصولاً إلى استنطاق العبارات المسكوت عنها بوصفها نصاً ـ موقفاً منتقداً لا تبقي على دلالاته أي شائبة تجمّل الحقيقة أو تبررها فما فائدة الكتابة إذا كانت ستتحول إلى حقل تفريخ هائل لكلمات، ألفاظ وعبارات بائخة لا يكاد همها الأول والأخير ان يتخطى مدح طاغية، حزب أو نظام قمعي.. أو لمجرد ان يبقى الكاتب على قيد الحياة ويدرك لقمة عيشه، فلماذا إذن حلمنا وتمردنا وكتبنا طوال هذه السنين العجاف من هذا الزمن اللعين.

نتساءل أخيراً: هل عثر غونتر غراس، بعد ان بلغ من العمر عتيا، في اعترافه هذا على جواب واف مطمئن لما قام به؟ أم ان الاعتراف ذاته اتّخذ صيغة أخرى على شكل بحث عقلي وروحي متواصل لمجريات التأريخ العامة والخاصة.. أم انه اتخذ من صوت الضمير ووخزات دبابيسه الموجعة مرشداً لقول الحقيقة بلا رتوش أو مواربة.

هل حان أو انجز الأوان ـ باعترافه ـ قبل فوات الأوان؟

هل سيقول لنفسه : كيف أذنت لها بالدخول إلى تلك الفرقة النازية؟

قد تستطيع سيرته الإجابة عن بعض هذه الأسئلة ونحن ننتشل رماد الحقائق من محرقته المقدسة وبتعبير أدق.. اعترافاته الوعرة لننتج أو لينتج لنا رؤية قد تحتاج لكي ترسو على مستقر ما يحتاجه الكاتب الحر المتحرر، الطليق المحلق في الوقت الحالي لصياغة مواقفه بلا تردد أو خوف أو محاباة وهكذا ستفرض هذه الرؤية نوعاً من الكتابة الجديدة المرفقة بالمواقف الرصينة التي بدورها ستجعل العالم مكاناً صالحاً للحياة والجمال، فهل سنزدري اعترافاته أم نغبطه على شجاعته وجرأته؟ وهو الذي شبه تاريخ المانيا النازية القبيح ـ في روايته الأخيرة ـ بالمرحاض.. حين كتب : (كلما شددت السيفون تصاعد الغائط إلى الأعلى).

يبقى السؤال الأخير : هذه الكتابات الصادقة المتوثبة وهذه الاعترافات الوعرة الحارقة ألا تستحقان المغفرة، وهل الشجاعة في قول الحقيقة أو الاعتراف بخطأ ما.. تعني التضحية بالنفس؟

غونتر غراس

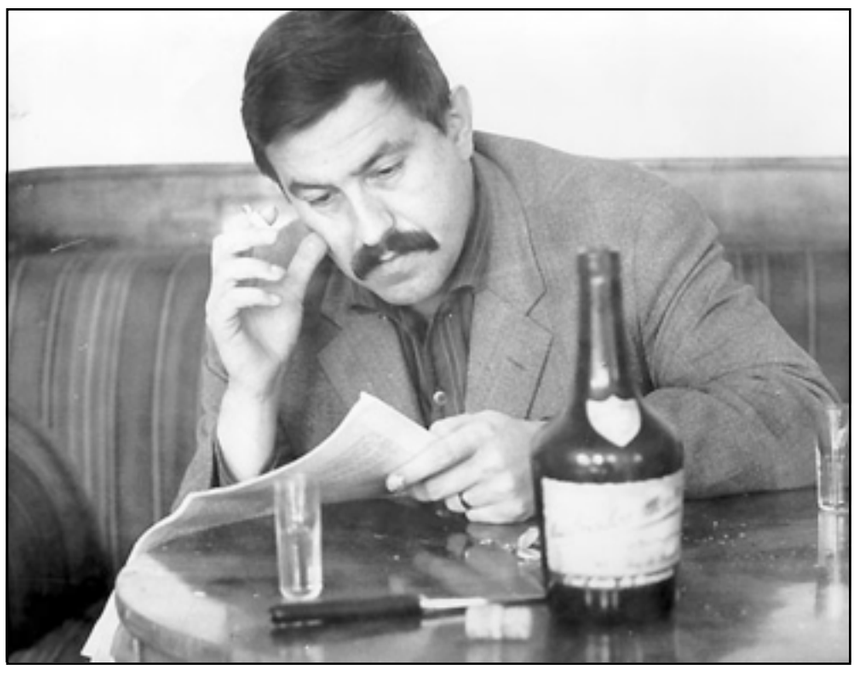

* شاعر من العراقي يقيم في المانيا

رحيل الكاتبة سلمى الحفار الكزبري بصمت جليل:

نصف قرن من العطاء المتواصل في شتى فنون الأدب

دمشق ـ «القدس العربي» ـ من انور بدر:

سبق للكاتبة والأديبة سلمى الحفار الكزبري ان غادرت بيروت إثر اجتياح 1976، وإثر اجتياح 1982، لكنها شاءت في هذه الحرب الأخيرة ان تبقى في مدينتها وان تتوحد معها في المصير والمأساة، فرحلت يوم 11/8/ 2006، في ذروة العدوانية الإسرائيلية الغادرة على لبنان، وفي ذروة القصف الهمجي الذي غطى على وداعة رحيلها باتجاه السلام الأبدي.

ولدت الأديبة سلمى الحفار الكزبري عام 1923 في حي مئذنة الشحم في دمشق القديمة، للمناضل والسياسي المعروف لطفي الحفار وهو أحد أقطاب الكتلة الوطنية في سورية آنذاك، وكان عام 1926 وزيراً في حكومة المفوض السامي الفرنسي حين اعتقلته سلطات الانتداب مع كل من زملائه الوطنيين فارس الخوري وسعد الله الجابري وحسني البرازي، وتم نفيهم إلى منطقة الجزيرة شمال شرق سورية، لمدة شهرين ثم نقلوا بعدها إلى قرية أميون قضاء الكورة في شمال لبنان حيث سُمح لعائلاتهم بالالتحاق بهم، واستمر المنفى لعامين إذ تم الإفراج عنهم عام 1928.

كان الأب مصراً على تعليم ابنته فأرسلها وهي طفلة إلى الكتّاب، وبعدها إلى مدرسة الفرنسسكان بدمشق «دار السلام» حالياً، وفيها أتقنت سلمى اللغة الفرنسية وتعلمت الانكليزية، وأخذت دروساً في العربية على يد الأديبة ماري عجمي ثم الأستاذ أبو الخير القواص.

إلا انها وجرياً مع تقاليد عصرها، تزوجت قبل ان تتم الثامنة عشرة من عمرها، من السيد محمد رشيد كرامي شقيق الزعيم اللبناني عبد الحميد كرامي في لبنان عام 1941، لكنه توفي قبل ان يتم ابنه الوحيد نزيه الشهرين من عمره، فراسلت الجامعة اليسوعية وحصلت منها على إجازة في العلوم السياسية باللغة الفرنسية، وبدأت الكتابة لمجلة «صوت المرأة» في بيروت، وأسست جمعية «المبرة والمواساة» في دمشق التي أخذت على عاتقها تربية الأطفال اللقطاء منذ ولادتهم وحتى سن السابعة.

وبضغط من أهلها ومن آل كرامي أيضا، كان زواجها الثاني عام 1948 من نادر الكزبري، وهو دكتور في الحقوق من جامعة السوربون ومدرس في جامعة دمشق، وعضو مجلس الشورى. وسافرت معه إلى الأرجنتين وتشيلي حيث كان يعمل حينها وزيراً مفوضاً لسورية في تلك البلاد، وهناك تعلمت الإسبانية والإيطالية، قبل ان تنتقل مع زوجها السفير إلى إسبانيا، حيث انتسبت إلى جمعية الكتّاب في مدريد.

تقول في إحدى مقابلاتها: «انا مدينة لرجلين في حياتي، والدي الذي علمني وشجعني ودربني، وزوجي الذي عرف بقصتي وكان مصراً على رفيقة درب من نوعي، وهو محب للفن والأدب وله ذوق رفيع في تلك الأمور، وقد استفدت من آرائه كثيراً، وأتمنى ان يكون لكل السيدات أزواج مثل رفيق عمري نادر».

وتضيف حول والدها: «انه انفق المال الذي ورثه عن أبيه في سبيل سورية وحريتها واستقلالها، وقد كتبت كتابين عنه هما «عنبر ورماد»، و«لطفي الحفار.. مذكراته وحياته وعصره»، فوالدي مثلي الأعلى في الحياة، وقد توفي عام 1968».

أصدرت سلمى الحفار أول أعمالها رواية «يوميات هالة في بيروت» باللغة الفرنسية عام 1950، ثم نشرت مجموعتين قصصيتين في القاهرة «أحزان» عام 1952، و«زوايا» عام 1955.

كتبت أجمل أشعارها باللغة الفرنسية، ونشرت ثلاثة دواوين «الوردة الوحيدة» و«نفحات الأمس» ثم «بوح»، كما نشرت أشعاراً باللغة الإسبانية بعنوان «عشية الرحيل»، وبدأت كتابة رواية عن الحرب الأهلية الإسبانية وهي في مدريد، وتابعتها بعد عودتهم إلى دمشق، وقد اختار الشاعر نزار قباني لها العنوان «عينان من أشبيليا» وصدرت عام 1965. كما كتبت من وحي القضية الفلسطينية روايتها «البرتقال المر» عام 1975.

سلمى الحفار الكزبري

منذ روايتها الأولى «يوميات هالة» بدت سلمى الحفار معنية بموضوع المرأة، تقول حول ذلك : «ان يوميات هالة انعكاس لي، فهي مذكرات فتاة ضمن مجتمع محافظ». وقد تابعت السيرة الذاتية مع والدها في رواية «عنبر ورماد» عام 1970، كما أصدرت في أدب السيرة كتابها «نساء متفوقات» منذ عام 1961، ثم كتبت عن «جورج صاند» 1979، لكنها تفرغت بعد ذلك لانجاز دراسات مهمة عن الأديبة مي زيادة، فسافرت إلى مصر ثلاث مرات لهذا السبب، كما قصدت إيطاليا للبحث عن مراسلاتها مع المستشرقين الإيطاليين، ودرست حياة جبران خليل جبران وآثاره، وشاركت في ترجمة وتحقيق ونشر رسائله إلى مي باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانكليزية بعنوان «الشعلة الزرقاء».

ثم نشرت حوالي مئتي رسالة محفوظة من مي إلى أعلام عصرها في كتاب عام 1982، بعنوان «مي زيادة وأعلام عصرها» وفي عام 1987 أصدرت كتابها الرائع «مي زيادة أو مأساة النبوغ» في جزأين تناولت فيه شخصيتها ككاتبة وشاعرة ومصلحة وخطيبة وانسانة.

كانت سلمى الحفار الكزبري تجيد العديد من اللغات، وأصدرت 22 كتاباً في الشعر والرواية والقصة والمقالة والسيرة والتحقيق والدراسة، ونالت عام 1965 وساماً رفيعاً من الحكومة الإسبانية إلى جانب جائزة «شريط السيدة» اعترافاً بجهودها وتقديراً لأعمالها الأدبية ودراساتها الاندلسية. كما منحتها جامعة باليرمو في صقلية جائزة «البحر المتوسط» عام 1980 تقديراً لأعمالها المتفردة. وفازت عام 1995 بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي بترشيح من مجمع اللغة العربية بدمشق حول دراساتها التي تناولت أعلام الأدب العربي الحديث.

عاشت الأديبة الراحلة بكل طاقتها على الحياة والعطاء، لكن دوي القصف الإسرائيلي الهمجي على لبنان جعل رحيلها يتم بصمت، دون ان تلقى الاحتفاء الذي يليق باسمها.

الشاعر الدكتور عبد الله باشراحيل:

موت الشعر ضرب من الخيال وجنوح عن الحقيقة

ابوظبي ـ «القدس العربي»

من د.جمال المجايدة:

قال الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل إن الشعر هو الإلهام، وإن الشعراء هم المُلْهمون، وكلاهما في هذا الإطار يخدم الآخر، ليتم تكامل الهدف الشعري.

وأشار إلى أن مجالات الإبداع الفني متعددة والتخصص مسألة تخضع إلى الإلهام النوعي الذي يلهم به المبدع، أما ركوب مراكب الإلهام بالإرادة القسرية فهذا هو الضياع الوقتي والفكري في آن.

وأكد الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل في الندوة التي أقيمت له في القاهرة بمؤسسة باشراحيل للإبداع الثقافي وحضرها عدد من الشعراء والكتاب والنقاد والإعلاميين من مصر وعدد من البلدان العربية أنه يعمد إلى إسقاط حرف الدال عندما يضع اسمه على أية قصيدة أو كتاب مشيراً إلى أنه «درجة علمية نالها وينالها الكثيرون حتى في أطروحاتهم عن الأكلات الشعبية وكرة القدم، وفي نظري أنني أكبر من الألقاب العلمية وأنني كأديب وشاعر منتم إلى وطن وأمة وتراث يجعلني أحس أن الاندهاش ينبغي أن يكون للموهبة وليس للاكتساب العلمي الذي حققه ولا يزال كل من أوتي قدراً من المكانة الموفية في علم من العلوم وهي في الوقت نفسه أيضاً تمثّل في نظري قمة ما زلت أعتز بها، ولكنني لا أرتزق بها وليس المهم أن يحقق أي شخص دالاً بلا أخلاق أو تأثير مدهش».

وقال إن درجة التأثير الشعري والانفعال الروحي والعقلي يكاد أن يندر تأثيرها والأسباب كثيرة ومعروفة، إذ لم يعد للشعر ذلك التأثير نظرا لاغتراب الألسنة والعقول والقلوب التي تحاول أمْركة كل المفاهيم للمزايدة على وهم التفوق المصطنع من وهم التأصيل لما هو غير أصيل.

وأوضح باشراحيل أن الشاعر الخلاق المبدع الذي يتفوق على الموهبة لا تحده الحدود، ولا تعجزه اللغة، ولا يضيق به ركوب بحار الشعر العميقة فتجد فيها «السهل الممتنع» وهي أيضاً مكْنة تضاف إلى الموهبة في الشاعر، تتحدد بها شخصيته والموضوعات التي يلح عليها تؤكد إجادته لنوع من أنواع الفن الشعري أو بعضه أو جله، ذلك كله يتجسد في قوة الموهبة الشعرية، وهذا ينطبق أيضاً على كل الفنون والعلوم بشقيها النظري والعلمي والتجريبي وإنْ اختلفت المعايير الإلهامية والتطبيقية والعلمية.

وحول الحداثة وماذا تمثله لدى الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل أوضح أن الحداثة ظاهرة صحية ولكن يجب أن تعرف تماما أن الحداثة ليست ابتذالا ولا هدما لتراث الأمة، وليست مجالا للضياع أو الهلوسة، وليست انفرادا بالساحة كلها لصالح هذه المقولات والمزاعم التي تأتي بحجة الاستشعار بالتقدمية والحضارة أكثر من الغير ، وأنا لا أرفض الحداثة بحال من الأحوال، بل أتمنى أن تكون لدينا أحدث نسخة من الحداثة، ولكن في إطار المنطق، بعيدا عن الجنون الذي لا يقيم لهذه الأمة وزنا ولا يؤدي بها إلا إلى الضياع وتشتيت الأفكار والتراث والجذور الحضارية.

والحداثة إذ جاءت بمفهوم التجديد البعيد عن تحطيم مفردات اللغة والمعاني، وإذ عبرت عن هواجس الأمة أو الهواجس والأحلام الذاتية في إطار التجديد، فإنني أعتبرها ظاهرة مهمة في استنطاق الحروف واللغة وإشعال معانيها بالنبض الذهني في العقول التي تكاد تطبق عليها مسحة من الجمود، والحداثة في الشعر تعني الانفلات من القديم إلى الجديد، كما أنها فكرة آنية تعيش في واقعها ولا تتعداه.

وقال باشراحيل إن هناك قولا لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «الشعر ديوان العرب»، والتاريخ العربي بدأ تدوينه بالشعر، وموت الشعر ضرب من الخيال، وجنوح عن الحقيقة، لأنه مثل الهواء والماء، وأعتقد أن ذوبان الشعر وتواريه وانعدامه شيء مستحيل، لأنه تراث الأمة الإسلامية بعد القرآن الكريم و الحديث الشريف، ومن خلاله نشأت قيم وأخلاقيات، واستطاع بعض الباحثين التنقيب والبحث عن قصائد حفظت شيئا من تاريخ العرب، وأعتقد أن القول بانتهاء الشعر وزواله ليس بصحيح، ولا يمكن أبدا لنا إلا الاعتراف بالشعر كونه قيمة حضارية وحتى لو نظرنا إلى الدول المتقدمة للمسنا أن الشعر هو المتحدث بلغة الأمة، لأنه ضميرها الحي ولغة التعبير الواعية، وهو أكثر التصاقا بالمجتمعات.

وحول رأيه عما يكون عليه الناقد الأدبي قال الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل إن الناقد الأدبي يجب أن تتوافر فيه أساسيات النقد التي من ضمنها التجرد من الذاتية أو الأغراض الباعثة على الهدم والتجريح وأن يكون على علم ودراية بعلم النقد وفنونه ثم يكون على قدر كبير من الثقافة الأدبية حتى يستطيع أن يتناول أي عمل أدبي ويخضعه للدراسة لا أن يترك الحبل على الغارب لكل من هب ودب أن يعتلي منصة النقد ويدلي بدلوه بكتابات لا تقوم على منطق ولا تعتمد على حجة أو علم، فيكون نتيجة ذلك انفلات أقلام الانفعالات الشخصية، وعموما النقد في الوقت الحاضر لم يواكب مستوى التطور الشعري والأدبي.

قص

هذه ليلتي!

سهيل كيوان *

■ هذه ليلتي، تلاشت فيها فرحة صوتك التي أحيت وردة روحي، عفويتك باتت ثقيلة وكسيحة، بهتت ضحكتك وشاهت براءتك، كلماتك مضبّبة مغبرّة، أصابعي غريبة بين خصلات شعرك، حروفك حذرة مذعورة مشوّهة ومكسورة، جفّ حلقك واستنزفت أعضاؤك.

هذه ليلتي، أفهم فيها كيف تموت الأنهار وتمرض المحيطات وتختنق الصحارى،

تقولين انني ما زلت أسري في دمك، وأن لي حجرة مسحورة في قلبك، وأنك ما زلت ترقصين لاسمي يُطلُّ على شاشة هاتفك، هل أصدّق وزقوقيا ابتساماتك استحالت وردا صناعياً مغبراً شوّهه الذباب، مثل شحّاذ أتسوّل منك كلمة حلوة، بربّك، هل هناك من يحرّض البلبل أن يشدو، والسوسنة أن تتفتح والمُزنة أن تمطر؟

هذه ليلتي، جفّ فيها لسانك وارتجفت شفتاك، انزلقت كلمة حبيبي من ثغرك طعنة تعزية ورثاء تذبحني وتفتك بكبدي،

هذه ليلتي وكابوس حياتي، رأيت نجومها نعوشاً وسماءها مقبرة.

حتى كمنجة (جهاد عقل) التي حركت دموعي طرباً.. غرّبتني حسرةً وكمداً، هذه ليلتي، تقولين فيها أن الصمت لغة في الحب، الشيطان أكثر تهذيبا وأنظف طويّة من الصامتين عندما تكون الكلمة موقفاً، صمتك حفنة اسمنت في حلقي،

كيف تمر ليلتي، وأنا مشدوهٌ مثل سيدة خرجت مساء لنشر غسيلها لتفاجأ بوحش في خوذة جندي يتبرز على سطح منزلها؟

تقولين «اشتقت لكَ»، تستلّينها من شفتيك بالكماشة، فتخرج رثاءً أرحم منه ألف شظية مسمومة، بيدي سأخنق لهفتي وشوقي اليك، بأظافري سأفقأ عينيّ المتلهّفتين لعينيك.

رسائلك الإلكترونية المحايدة المنحوتة بحذر باتت سموما تحرق رئتيّ وتهرّئ شراييني.

صورتي التي قلت أنّها جميلة هي لجريح مبتور الأعضاء في سرير العناية المكثفة الأخير، لا تخدعنك ابتسامتي فهي تخفي مجزرة وأنفاساً أخيرة تحت أنقاض عمارة من عشرة طوابق بعد غارة.

هذه ليلتي وكابوس حياتي، بلا ملح طعامي، شرابي أجاج، ورائحة الموت فضائي. ألجأ لكتبي، أبحث في النثر وفي الشعرعن طوق يحمي نرجستي الأخيرة، النثر حصى والأشعار رمال في تشابهها، حتى دُنقل لا يتعذّب مثل عذابي،متفحمة روحي كوجه طفلة تحت شرفة بيروتية، كئيبٌ أنا مثل زقاق قديم في حيفا، مكلوم أنا كحصان أصيل خذلَ فارسَه. هذه ليلتي.. تَجمّع في صدري حزن ملايين العرب الشاخصة قلوبهم الى فضاء لبنان الممطر كراسيَ وعروشاً عنقودية، لا تقولي أنني حبيبك، أكره أن يكذب لسانك الصغيرالذي كان يسبق سلامَك الى شفتيّ، افتحي عينيك جيدا واطعنيني بخنجر الحقيقة، هذه ليلته وليست ليلتي، حتى وان كان رأسك مدفونا في حضني فأنت معه، أنت مع مجهول مستلق الآن بين روحي وروحك كلوح زجاج، انه الثلج الذي صار يلفّ جسدينا وان بتنا ليلتنا هذه متعانقين.

* كاتب من فلسطين